الدرس الثامن

دعوات إبراهيم عليه السلام

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾

(إبراهيم: ٣٥-٤١) .

دعوات إبراهيم عليه السلام :

هذه الآيات الكريمة من سورة إبراهيم ، تتحدَّث عن توجُّه إبراهيم بهذه الدعوات الطيِّبات المباركات المخلصات ، فسورة إبراهيم يدور محورها من أول السورة حول النعم ، وموقف الناس منها بين الشكران والكفران ، وخاصة نعمة النبوَّة والرسالة ، وموقف الناس من النبوَّة والرسالة .

وقد ذكرنا في الدرس السابق تعجيب القرآن من الذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا وأحلُّوا قومهم دار البوار .

وعمَّا ذكره الله سبحانه من مظاهر نِعَمِه في كونه ، من خلق السماوات والأرض ، وإخراج الثمرات رزقًا للناس ، وإنزال الماء من السماء ، وتسخير الليل والنهار ، إلى أن قال سبحانه : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ (إبراهيم: ٣٤) .

إبراهيم النموذج الشاكر لله تعالى :

ثم ذكر بعد هذا الشوط شوطًا آخر من الآيات الكريمة عن إبراهيم خليل الرحمن ، أبي الأنبياء وأبي المسلمين عليه السلام ، باعتباره يمثِّل النموذج الشاكر لله تعالى من بني الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

(الإنسان:٣) .

إبراهيم عليه السلام ، يمثِّل العبد الشاكر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل:١٢٠،١٢١) .

شاكرًا لأنْعم الله عزَّ وجلَّ ، فمن صفات إبراهيم التي يَتَحلَّى بها ، والتي يَتَميَّز بها : الشكر للهِ عزَّ وجلَّ ، يشكر نِعَمَ الله ، ويعرف نِعَمَ الله ، حتى في البلايا التي تنزل به يرى فيها نِعَم الله عزَّ وجلَّ عليه .

إبراهيم هذا الشَّكار الذكَّار لله عزَّ وجلَّ ، تُحدِّثنا عنه هذه الآيات الكريمة التي من أجلها سُمِّيت هذه السُّورة باسمه .

دعاء إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ : هذا تعبيرٌ منتشرٌ وشائعٌ في القرآن الكريم : (إذ) يعني اذكر إذ قال إبراهيم ، اذكر يا محمد قصَّة هذا النبي العظيم ، فأحيانًا كلمة (اذكر) تُذكَر في القرآن مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ (مريم:١٦) . ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (مريم:٤١) وأحيانًا تذكر (إذ) بمعنى : اذكر .

﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ : أي : واذكر حين قال ، اذكر لقومك ما قاله إبراهيم عليه السلام ، ففيه عظةٌ وعبرةٌ .

عناية القرآن بأدعية الأنبياء عليهم السلام :

والقرآن يحتفي بأدعية الأنبياء لله عزَّ وجلَّ ، فأدعيةُ الأنبياء تُمثِّل ضَرَاعات وابتهالات إلى الله عزَّ وجلَّ من قلوب مُخْلِصَة ، وألسنةٍ صادقة ، وبعبارات قويَّة مُؤَثِّرة .

هنالك مَنْ دَعَا الله حين أصابه الضُّر ، مثل أيوب عليه السلام : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣) .

ومنهم مَن دعا في بطن الحوت في الظلمات ـ ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ـ مثل يونس عليه السلام : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٧) .

وهنا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام دَعَا بتسع دعوات : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا . . . ﴾ .

المطلب الأول : الأمن للبلد الحرام :

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾

الدعوة الأولى : ﴿ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ﴾ : إشارة إلى مكَّة ، شرَّفها الله ، ﴿ ءَامِنًا ﴾ ، وفي سورة البقرة : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ (البقرة:١٢٦) .

السرُّ في التعريف في سورة إبراهيم والتنكير في سورة البقرة :

هنا ـ في سورة إبراهيم ـ قال : ﴿ ٱلْبَلَدَ ﴾ . بصيغة التعريف ، فالبلد قائم ومعروف : ﴿ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ ، هناك ـ في سورة البقرة ـ ﴿ بَلَدًا ﴾ (البقرة:١٢٦) ؛ لأنه لم يقم بعد ، فاجعل هذا المكان بلدًا آمنًا ، فيطلب له البلديَّة

والأمن . هنا ـ في سورة إبراهيم ـ البلديَّة موجودة ، يطلب له الأمن ؛ لأنَّ الأمن من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان[1].

---

(١) قال العلامة الخطيب الإسكافي في (درة التنزيل) (١/٢٧٢-٢٧٦) : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ (البقرة:١٢٦) وقال في سورة ابراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ (إبراهيم:٣٥) . للسائل أن يسأل فيقول : لم كان في سورة البقرة بلدًا نكرة ، وفي سورة إبراهيم معرفة؟ والجواب عن ذلك من وجهين : أحدهما : أن يقال : إن الدعوة الأولى وقعت ، ولم يكن المكان قد جعل بلدًا ، فكأنه قال : رب اجعل هذا الوادي بلدا آمنا ، لأن الله تعالى حكى عنه أنه قال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ (إبراهيم:٣٧) بعد قوله : (اجعل هذا الوادي بلدًا آمنا) ، ووجه الكلام فيه : تنكير بلد الذي هو مفعول ثان ، هذا مفعول أول . والدعوة الثانية وقعت ، وقد جعل الوادي بلدًا ، فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذي صيَّرته كما أردت ومصَّرته كما سألت ذا أمن على مَنْ أوى إليه ولاذ به فيكون البلد على هذا عطف بيان على مذهب سيبويه ، وصفة على مذهب أبي العباس المبرد ، و(آمنا) مفعولا ثانيًا ، فعرف حيث عرف بالبلدية ، ونكر حيث كان مكانا من الأمكنة غير مشهور بالتميز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى الناس .

والجواب الثاني : أن تكون الدعوتان واقعتين بعد ما صار المكان بلدًا ، وإنما طلب من الله تعالى أن يجعله آمنا ، وللقائل أن يقول : اجعل ولدك هذا ولدا أديبا ، وهو ليس يأمره بأن يجعله ولدا ، لأن ذلك ليس إليه ، وإنما أمره بتأديبه ، فكأنه قال : اجعله على هذه الصفة ، وهذا كما يقول : كن رجلا موصوفا بالسخاء ، وليس يأمره بأن يكون رجلا ، وإنما يأمره بما يجعله وصفا له من السخاء ، فذكر الموصوف وأتبعه الصفة ، وهذا كما تقول : كان اليوم حارا ، فتجعل يوما خبر كان ، وحارا صفة له ، ولم تقصد أن تخبر عن اليوم بأنه كان يوما ، لأنه يصير خبرا غير مفيد ، وإنما القصد أن تخبر عن حر اليوم ، فكان الأصل أن تقول : كان اليوم حارا ، وأعدت لفظ يوم لتجمع بين الصفة والموصوف ، فكأنك قلت : كان هذا اليوم من الأيام الحارة ، وكذلك تقول : كانت الليلة ليلة باردة ، فتنصب ليلة على أنها خبر كان ، وحكم الخبر أن يتم به الكلام ، ولو قلت : كانت الليلة ليلة لم يكن الكلام تاما ، لأن القصد إلى الصفة دون الموصوف . فكذلك قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ (البقرة:١٢٦) ، يجوز أن يكون المراد : اجعل هذا البلد بلدا آمنا ، فيدعو له بالأمن بعد ما قد صار بلدا على ما مثلت ، ويكون مثل قوله : ==

الأمن من أعظم نِعَم الله على الإنسان :

سُئِلَ أحدُ الحكماء : ما السعادة؟ قال : السعادة هي الأمن ، فإني رأيتُ الخائف لا سعادة له .

قد يكون الإنسان معه المال والولد والقصور والخَدَم والحَشَم ، ولكنه يعيش في رُعْب ، هذا ليس سعيدًا ، الآمن هو السعيد ، ولذلك امتنَّ الله على قريش ، فقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾ (قريش:٣،٤) ، أطعمهم حاميًا لهم من جوع ، وآمنهم حاميًا لهم من خوف .

الجنَّة دار أمان ، ولذلك يقول : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر:٤٦) ، ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس:٦٢) .

ولما جاء يعقوب وأولاده إلى مصر ، آوى نبيُّ الله يوسف أبويه ، وقال لهم : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٩) .

الأمن هنا شيءٌ مهم جدًّا ، ولذلك سأل إبراهيم ربَّه الأمن للبلد الحرام : ﴿ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ ، وقد جعل الله مكة بلدًا آمنا ، يأمن فيه الإنسان ، ويأمن فيه الوحش ، ويأمن فيه الطير أن يُصاد ، حتى الحشائش والخضروات والأشجار لا تُمسُّ في هذا البلد الحرام ، مَن لقي في هذا الحرم قاتل أبيه لا يمسُّه

==﴿ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ (إبراهيم:٣٥) ، وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله تعالى عنها في الموضعين . انتهى

وهناك جواب ثالث وهو : أنه تقدم في سورة البقرة ذكر البيت في قوله : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ (البقرة:١٢٥) ، وقوله : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (البقرة:١٢٥) وتعريف البيت حاصلٌ منه تعريف البلد ، لأن ذكر البيت يقتضي بالملازمة ذكر البلد الذي هو منه ، فلم يحتاج إلى تعريف ، بخلاف آية سورة إبراهيم ، فإنها لم يتقدم قبلها ما يقتضي ذكر البلد ولا المعرفة به ، فذكره بلام التعريف . وإلى هذا ذهب ابن الزبير في ملاك التأويل (٢٣٤/١) .

بسوء ، كان العرب في الجاهلية يقاتل بعضهم بعضًا ، فإذا تلاقَوْا في المسجد الحرام أَمِنَ بعضُهم بعضًا ، فهو كما قال الله تعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ (آل عمران:٩٧) .

سألَ إبراهيمُ ربَّه لهذا البلد : الأمن ؛ لأنَّ الأمنَ من أهداف الحياة الطيِّبة ، ولا يُمكن للناس أن تستقيمَ لهم الحياة إلا بالأمن .

هنا تقوم وزارات للأمن ، وإدارات للأمن ؛ لمنع عدوان الناس بعضهم على بعض ، حتى لا يحدث الخوف .

الحدود الشرعيَّة توفِّر الأمن للناس :

الشَّرع جعل في السرقة الحد ، قطع اليد : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ (المائدة:٣٨) . ولم يجعل في الغصب حدًّا كالسرقة ؛ يعني لو أن شخصًا نهب شخصًا وأخذ ماله ، هذا ليس فيه حدٌّ ؛ لماذا ؟ لأنَّ السارق يهدِّد الأمن ، يسرق الناس وهم في نومهم ، وهم في بيوتهم ، فيُصبح الناس خائفين في البيوت أن يدخل عليهم أحد ، أما النَّهب والسلب فهو علنيٌّ لا يُخيف ، فالأمنُ شيءٌ مهمٌّ جدًّا ، ولأجل ذلك شُرِعَت الحدود ، مثل حدِّ السرقة وحدِّ الحرابة ، حدِّ قطع الطريق ، وما فيه من العقوبات الشديدة لتوفير الأمن للناس .

المطلب الثاني : حمايته هو وأبناؤه من عبادة الأصنام :

﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم:٣٥)

هذا هو المطلب الثاني لإبراهيم ، طلب مطلبًا للبلد (الأمن) ، وطلب لنفسه وبنيه التوحيد - أن يرزقهم الله التوحيد - ويحميهم من عبادة الأصنام هو وبنيه ، طلب لنفسه ولبنيه : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ .

إبراهيمُ عليه السلام نَبيٌّ وهو مع ذلك يخاف على نفسه عبادة الأصنام؟! لكن هذا الدعاء تَضرُّع لله عزَّ وجلَّ ، فيه هَضْم النفس ، فيه شعور بالافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ ، ولذلك قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام : «الدعاء هو العبادة»[1]. وهذا حديث صحيح ، وهناك حديث ضعيف «الدعاء مخُّ العبادة»[2]؛ لأنَّ حقيقة العبادة ، وروح العبادة ليست هي الطقوس والحَركات ، رُوح العبادة : الشعور بالافتقار إلى الله ، والتَّوجُّه إليه بقلب خالص ، شاعر بأنه لا يستغني عن الله ، هذا هو الأساس ، وهذا يتمثَّل في الدعاء ، ولذلك يقول : ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ ، أبعدني عن هذا الخطر .

خطر الشِّرك على البشريَّة :

لأنَّ أخطر شيء على البشرية الشِّرك بالله عزَّ وجلَّ ، لم يكن الإلحاد ـ الجحود بالله عزَّ وجلَّ ـ والكفران بالله وبوجود الله لم يكن مشكلة البشريَّة في تاريخها ؛ لأنَّ الملاحدة طوال التاريخ قلَّة لا وزن لهم ، عددٌ قليل الذين ينكرون وجودَ الله ، إنما الذي مثَّل الخطر في تاريخ البشريَّة هو الشِّرك .

وُجِدَت في التاريخ مدن ـ كما قال المؤرِّخون ـ بلا حصون ، ووُجدت مدن بلا مدارس ، ووجدت مدن بلا قصور ، ولكن لم توجد في التاريخ أبدًا مدنٌ بلا معابد . كلُّ المدن في الشرق وفي الغرب ، في الشمال وفي الجنوب وُجدت فيها المعابد ، ولكن المهم : مَن يُعبد في هذه المَعَابد ؟

---

(١) رواه أحمد (١٨٣٥٢) وقال مخرِّجوه : إسناده صحيح ، وأبو داود في الوتر(١٤٨١) ، والترمذي في تفسير القرآن(٢٩٦٩) وقال : حديث صحيح ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨) ، وصححه الألباني ، في صحيح أبي داود (١٣٢٩) ، عن النعمان بن بشير .

(٢) رواه الترمذي في الدعوات(٣٣٧١) وقال : غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ، والطبراني في الأوسط (٣١٩٦) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٠٠٣)، عن أنس .

كثيرًا ما عُبِدَ غيرُ الله ، عُبِدت الشمس والقمر ، وعُبدت الكواكب والنجوم ، وعُبدت العجول والأبقار ، وعُبدت الجنُّ والبشر ، وعُبِدت الوُثُن والحجر ، عَبَدَ الناس أشياء كثيرة من دون الله عزَّ وجلَّ ، اتَّخذوها آلهةً من دون الله ، أو آلهةً مع الله عزَّ وجلَّ .

إرسال الرسل عليهم السلام لمحاربة الشِّرك :

ولذلك حين بَعَث اللهُ الرُّسلَ ، بعثهم لمحاربة الشِّرك لا لمحاربة الإلحاد ، لم يُبعث الأنبياء ليقيموا الدليل على وجود الله ، لأنَّ هذه فطرة ؛ إنَّما بُعثوا ليقيموا الدليل على توحيد الله ، وليُقاوموا الشِّرك بالله عزَّ وجلَّ ، ولذلك وجدنا النِّداء الأوَّل في كلِّ رسالة : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف:٥٩) ، فكلُّ نبيٍّ دعا قومَه أن يعبدوا الله ، ولا يعبدوا أحدًا غير الله عزَّ وجلَّ ، ولذلك حرص إبراهيم أن يدعوَ ربَّه أن يُجنِّبه ، وأن يُجنِّب بنيه ـ سواء كانوا بنيه من صُلبه أو من غير صُلبه ـ أن يعبدوا الأصنام ، هذا ما توجَّه به إبراهيم عليه السلام إلى ربِّه عزَّ وجلَّ .

كثرة الأصنام المعبودة من دون الله :

وبعض المفسِّرين يقول : الأصنام هنا أيضًا ليس المراد منها الحجارة المعبودة من دون الله ، هناك أصنام أخرى ، لعلَّ إبراهيم حينما قال : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، أراد أن يُجنِّبه الله إيَّاها مثل : عبادة الدينار ، وعبادة الدرهم ، وعبادة هذه الأشياء كما جاء في الحديث : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيكَ فلا انتقش »[1] أي : إذا أصابته شوكة فلا

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٦٨٨٧) ، والترمذي في الزهد (٢٣٧٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٥) ، عن أبي هريرة .

أُخرجت منه بالمنقاش ، فهذه أصنام يعبدها الناس ، لذلك قال : ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ .

فالأنبياء عليهم السلام يطلبون أن يُجنِّبهم الله عبادة الأصنام ، لذلك استعاذ النبيُّ عليه الصلاة والسلام من الشِّرك : « اللهمَّ إنا نعوذُ بك من أن نُشرك بك شيئًا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه »[1] ، أعوذ بك من الشَّك والشِّرك والنفاق وسوء الأخلاق .

المطلب الثالث : التحذير من الأصنام :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ إنهنَّ : هذا الضمير راجع إلى الأصنام ، فهذه الأصنام أضلَّت كثيرًا من الناس .

وهل هذه الأصنام ـ وهي جمادات ـ يمكن أن تُضلَّ؟! والجواب : أنها كانت سببًا في إضلال الناس .

حينما تقول : الدنيا أغْوَتْهُم وَغَرَّتهم ، كيف تغرُّ الدنيا وتضحك على الناس؟ المقصود أنها كانت سببًا في ذلك ، فنُسب إليها ما يُنسب إلى العقلاء .

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، كما رأينا هذه الأصنام أضلَّت العرب فعبدوها مع الله ، أو عبدوها من دون الله ، وقالوا : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس:١٨) ، ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس:١٨) ، ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ (الزمر:٣) .

---

(١) رواه أحمد (١٩٦٠٦) وقال مخرجوه : إسناده ضعيف لجهالة أبي علي الكاهلي . وابن أبي شيبة في التعوذ من الشرك (٣٠١٦٢) وقال الهيثمى (٢٢٣/١٠) : رجال أحمد رجال الصحيح ، غير أبى علي ووثقه ابن حبان ، عن أبي موسى الأشعري .

ضلال البشريَّة بعبادة الأوثان :

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، للأسف الملايين ، بل البلايين من البشر ضلُّوا بعبادة الأوثان ، الوثنيَّات الكبرى إلى الآن في العالم أضلَّت العالم ، هناك بلاد بالملايين تعبد الأوثان : البوذيَّة والهندوسيَّة ، وأديان في آسيا ، في اليابان وغيرها ، وفي إفريقيا ، وثنيَّات كبرى أضلَّت مليارات من البشر ، فلا عَجَبَ أن يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، لا تقُل : هذا كان في زمن الجاهليَّات ، وقبل أن يتقدَّم الإنسان ، وقبل أن يملك العلم والتكنولوجيا ، وقبل الثورات العلميَّة ، والثورة الجيولوجية ، والثورة التكنولوجية ، والثورة المعلوماتية ، والثورة الفضائية . . إلخ ، إلى الآن ، وقد وَصَل الإنسانُ إلى ما وصل إليه ، لا زالت الوثنيَّات موجودة ، هكذا نرى الناس إلى الآن ، نراهم يُقدِّسون الأحجار ، نراهم يقدِّسون الأبقار ، هكذا وجدنا البشر ، فلا عَجَب أن يقول إبراهيم : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

أتباع إبراهيم :

﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾

مَن تَبعني ، وقَبِلَ رسالتي ، وصدَّق بنبوَّتي ، وعمل بما جئتُ به من عند الله ، ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ : واحدٌ من أمتي يُنسب إليَّ كأنه منِّي ، هو منِّي وأنا منه ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:٦٨) .

المراد بالمعصية :

﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ ، هل هو مَنْ عَبَدَ الأصنام؟ أم مَنْ عصاني بارتكاب الكبائر؟ أم مَنْ عصاني بمعصية الله عزَّ وجلَّ من غير شرك؟!

النَّصُّ عام ومُجْمَل ليس فيه تفصيل ، هو قال : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، أنت أهلٌ لأن تَغْفر وأن تَرْحَم .

هل يغفر الشِّرك؟ الله تعالى قال في كتابه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء:٤٨) .

إشفاق إبراهيم على عباد الله :

ولا يقال : إنَّ هذا كان في ديننا وليس في دين إبراهيم ، ولكنَّ الواقع أنَّ هذا من سيدنا إبراهيم هو نوعٌ من القلب الحنون ـ القلب المشفق على عباد الله ـ قال : يا ربِّ أنا أترك الأمر لمغفرتك ورحمتك ، تَتُوبُ عليه ، تهديه بعد ذلك ، تُطيل عمره حتى تتيح له فرصة للهداية ، أنت صاحبُ المغفرة والرحمة .

وهذا يُشبه ما قاله سيدنا عيسى عليه السلام ، حينما قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (المائدة:١١٨) .

أنا لا أتدخَّل في شأن بينك وبين خلقك وبين عبادك : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ، تتصرَّف فيهم ، صاحب الملك يتصرَّف في ملكه كيف يشاء ، ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . هنا لم يقُل : (إنك أنت الغفور الرحيم) ؛ لأنك إذا غَفَرت أو رحمتَ فلا تفعل ذلك عن ضَعْف ، ولكن تفعل ذلك عن عزَّة

وعن قوَّة ، وتفعل ذلك عن حكمة لا عن سَفَه ، حكمة تضعُ الشيءَ في موضعه : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

المطلب الرابع : إقامة الصلاة :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ .

القرآن دائمًا يأتي بصيغة الدعاء إما بـ (رب) ، ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ ، ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص:٢٤) ، أو (ربنا) ، ومعظم أدعية القرآن : (ربنا) ؛ لأنه يدعو بصيغة الجماعة .

الإنسانُ حينما يدعو بصيغة الجماعة ، يحشر نفسه في زُمْرة الداعين ، وفي زمرة المؤمنين ، لو أنَّ عنده مانعًا من إجابةِ الدعاء ، إذا أدخل نفسه في المؤمنين فلعل الله يستجيب له ببركتهم ، ولذلك شَاعَ في القرآن صيغة : (ربنا) .

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:٢٠١) ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٨٦) ، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف:١٠) . . . إلى آخر ما في القرآن من صيغ الدعاء (ربنا) ؛ لأنَّ كلمة الربِّ تعني : السيادة ، وتعني الملك ، وتعني الرعاية والتَّرقية في مدارج الكمال ، كأنه يقول : يا سيدنا ، يا مالكنا ، يا راعيَنا ، يا مربِّينا ، يا مُرقِّينا في مدارج الكمال .

كلمة (ربنا)، تعني : أنك لستَ غريبًا عنَّا ، أنت الذي تشملنا بعنايتك ورعايتك ، وتغمرنا بإحسانك من قروننا إلى أقدامنا .

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ :

سيدنا إبراهيم عليه السلام على هذه السنَّة بدأ بقوله : (ربِّ) ، ثم قال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ ، يعني : أسكنتُ بعض ذُرِّيَّتي ، مثل : إسماعيل وأمه ، كما جاءت الروايات : أنَّ الذرِّيَّة التي أسكنها عند بيته المُحرَّم كانت تتمثَّل في إسماعيل ابنه البكر ، وأمه هاجر المصريَّة ، التي وَهَبها مَلِكُ مصر له ، أو لزوجته سارة ، وشاء الله أن لا تُنجب سارة ، وأن تنجب الأَمةُ ـ الجارية ـ وأنجبت إسماعيل بعد مدَّة من الزمن ، اتَّقد قلب سارة حرارة واشتدّت غيرتها . قالت : لا أريد أن يبقى هؤلاء معي ، أبعدهم عني . فأخذهما إبراهيم عليه السلام ، ورَحَل بهما إلى مكة ، عند بيت الله الحرام .

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ .

الوادي لا زرع فيه ، ليس فيه شجرة ، وطبعًا الذي يذهب مكة الآن يجد فيها الآلاف من الأشجار ، إنما قبل ذلك لم يكن فيها شَجَرة ، لأنه واد من الجبال ـ أحجار ـ ليس فيها مَجَال للزرع .

﴿ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾

أسكنتُ بعض ذُرِّيَّتي بجوار هذا البيت المُحرّم والمُعظَّم ، البيتُ العظيم الحرمة ، الذي جعله الله مهيبًا ، يهابه حتى الجبَّارون ، ممنوعًا ممَّن يريد به شرًّا .

إقامة الصَّلاة شريعة الأنبياء :

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

أسكنت بعض ذُرِّيَّتي ليكونوا بجوار هذا البيت ؛ ليقيموا الصَّلاة ، ليقوموا بعبادتك عند بيتك المحرَّم ، وأعظم عبادة يتقرَّب بها عبادُك إليك هي إقامة الصَّلاة ، التي هي عبادةٌ في كلِّ دين ، شعيرةٌ في كلِّ ملَّة من الملل ، فها هي نراها في كلام إبراهيم عليه السلام .

ونراها أيضًا في شريعة موسى عليه السلام : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٨٧) .

والمسيح عليه السلام حينما نطق في المهد صبيًّا : ﴿ وَأَوْصَنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم:٣١) .

ولقمان يُوصي ابنه : ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (لقمان:١٧) . فالصلاة موجودة في كلِّ الأديان .

واللهُ تعالى يقول عن أهل الكتاب : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البينة:٥) ، فالصلاة شعيرةٌ في كلِّ دين ، فلهذا قال إبراهيم : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، ليقوموا بهذه الشَّعيرة .

قال : ﴿ لِيُقِيمُواْ ﴾ ، لم يقُل : يُؤدُّوا الصَّلاة ، أو يفعلوا الصَّلاة ، لا بل ليقيموها ، ليؤدُّوها قائمةً على أصولها ، بأركانها وسجودها وركوعها وآدابها وخشوعها .

المطلب الخامس : مهوى الأفئدة :

﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾

دَعَا اللهَ سبحانه أن يُحرِّك قلوبَ طوائف من البشر ، تَهوي وتُسرع إلى هذا المكان القْفر ، إلى هذا الوادي غير ذي الزرع ، اجْعَل أفئدةً من الناس تَهْوي إليهم ، واستجاب الله دُعاء إبراهيم عليه السلام ، وتَحَّركت أفئدةُ الناس وقلوبُ الناس شَوقًا إلى هذا المكان ، من عهد إبراهيم وإلى يومنا هذا ، تتحرَّك القلوب إلى هذا المكان ، وتشتاق إليه ؛ لتُؤْنس أهله ، وتُهيِّئ لهم أسباب الخير .

يقول عبد الله بن عباس ـ ترجمان القرآن ـ رضي الله عنهما : قال : ﴿ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، ولم يقل : أفئدة الناس ؛ لأنه لو قال : (أفئدة الناس) لازدحم عليه فارس والروم ، والناس كلهم [1]. ولو حدث ذلك لهلكوا من الزحام .

لو أتى كلُّ البشر إلى هذا المكان ، لا يمكن أن يتَّسع لهم ، إنما قال : ﴿ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، وأفئدة من الناس ، التي تجعل اثنين مليون يصلُّون في الحرم في ليلة سبعة وعشرين من رمضان ، وحوالي ثلاثة ملايين يحُجُّون إلى هذا البيت أيام موسم الحج العظيم ، فهؤلاء أفئدةٌ من الناس .

المطلب السادس : الرزق من الثمرات :

﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾

ارزقهم من الثمرات : من الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها وخيراتها ، وارزقهم من الثمرات : بأن تسخر لهم من عبادك من يجلبها إليهم من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٦٩٩/١٣) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٢٩٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٧٠٨) .

كلِّ ناحية . ممَّا تأتي به التجارات من البلاد البعيدة ، وممَّا تأتي به القُرى القريبة منهم أيضًا ؛ كلُّ هذا كما قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(القصص:٥٧)، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٧) .

تحقيق الحياة الطيِّبة :

هذا كلُّه من استجابة دعوة إبراهيم عليه السلام ، وهنا تكاملت الطيِّبات التي يحتاج إليها الناس ؛ لينعموا في حياتهم الدنيا بعيش رغد .

العيش الطيب والحياة الطيبة تحتاج إلى أمرين : الأمن ، وهو الذي دعا به إبراهيم أولاً : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ .

والشيء الآخر : الرخاء ، الكفاية : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾ (قريش:٤) ، لا بد للمرء أن يأكل ويأمن .

سيدنا إبراهيم قدَّم الأمن في هذا المقام لحاجة الناس إليه في مثل هذه البلاد القَفْرة والصَّحاري .

فالناس تحتاج إلى الأمن أولاً ، ثم دَعَا بالثمرات ، كما قال في سورة البقرة : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (البقرة:١٢٦) ، أي ارزق المؤمنين .

قال ربُّنا معقِّبًا على سيدنا إبراهيم : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة:١٢٦) ليس الأمن والرزق من الثمرات مقتصرًا على مَنْ آمن بالله واليوم الآخر فقط ، بل ومَن كفر سأُمتِّعه قليلاً ، ثم مأواه إلى جهنم وبئس المصير .

شكر المؤمنين :

﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ ، هذه ميزة المؤمن على الكافر ، أنَّ الله تعالى يرزقه من الثمرات ؛ ليكونَ على رجاءِ الشكر لله ، إنه حينما يرى نعمة الله تعالى عليه يشكر ربَّه ، يشكر صاحبَ النعمة ، يعترف له بالفضْل ، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣) ويحمده بلسانه ، يقول : الحمد لله ، ويستخدم نعمه في طاعته . هذا هو الشكر ﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ رجاء أن يقوموا بواجب شكرك حتى يستحقُّوا المحافظة على النعمة فتبقى ولا تزول ، وحتى يستحقُّوا الزيادة : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾(إبراهيم:٧)

ثناء إبراهيم عليه السلام على الله عزَّ وجلَّ :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ ﴾

هنا قال : ﴿ رَبَّنَآ ﴾ ، لكنه لم يدعُ بدعاء ، لم يطلب شيئًا ، إنما كان يريد الثناء على الله عزَّ وجلَّ ، أن يحمدَ الله تعالى بما هو أهله ، أن يقول : يا ربِّ ، نحن إذا دعوناك أو لم ندعك فأنت تعلم ما في قلوبنا ، ويمكن أن تُعطينا من غير سؤال ، وعلمك بحالنا يغني عن سؤالنا .

علمُ الله تعالى بالسرِّ والعلن :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ ﴾ ، ما أسررناه في أنفسنا تعلمُه ، وما أعلنَّاه بألسنتنا تعلمُه ، ولا يخْفى عليك شيءٌ ، ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ (النحل:١٩)، ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ (غافر:١٩) .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ ﴾ ، لا نستطيعُ أن نُخبّئ عنك شيئًا ؛ لأنَّ ما نخبِّئه في صدورنا فأنت تعلم به ، تعلم ما في السرائر ، وما تُخفي الصُّدور .

﴿ وَمَا تَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

هل هذا من كلام إبراهيم؟ أم هذا تعقيب من الله عزَّ وجلَّ على كلام إبراهيم ، تصديقا له ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ، بعد حكاية قول ملكة سبأ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ (النمل:٣٤)؟ يحتمل الأمرين ، وأنا أُرجِّح أنه من كلام إبراهيم عليه السلام نفسه .

وضع المظهر في موضع المضمر :

﴿ وَمَا تَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ ، لم يقل : (وما يخفى عليك) ؛ لأنَّ وضع المُظْهَر في موضع المُضْمَر ؛ ليتبرَّك بذكر لفظ الجلالة ، ويستحضر هذا اللفظ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا تَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ مطلقًا ولو كان صغيرًا ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، كما قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (آل عمران:٥) .

لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سرٌّ ولا علانية : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الملك:١٣) .

يعلم بما تُخبِّئه الصدور والضمائر : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طه:٧) ، أخفى من السرِّ .

نِعْمة الذرِّيَّة الصَّالحة :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾

بعد أن نادى إبراهيم ربَّه بهذا النِّداء : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ ، جمع إلى ذلك الحمد لله عزَّ وجلَّ .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ ، كلاهما وَهَبهما الله إبراهيم على الكبر ، في الشيخوخة .

لم يذكر القرآن كم كان سنُّه ، ولكن جاءت الروايات والإسرائيليات أنَّ عمره حينما رُزِقَ بإسماعيل تسعة وتسعين عامًا ، وحينما رُزق بإسحاق كان مائة واثنتي عشرة سنة ، أي بعد ثلاثة عشرة سنة رُزق بإسحاق[1] ، حينما بلغ إسماعيل معه السَّعي ، وبعد حادثة الذبح : ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾

(الصافات:١١٢) .

البشرى بإسحاق بعد إسماعيل :

فوهبه الله سبحانه على الكبر إسماعيلَ وإسحاقَ ، وَهَبه أولاً إسماعيل ، ثم كافأه على التسليم بأمر الذبح ، حينما رأى في المنام أنه يذبح ابنه ، وقال له : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ (الصافات:١٠٢،١٠٣) ، أسلم الوالدُ ولدَهُ ، وأسلمَ الولدُ عنقَهُ لله ، وصرعه على جبينه ، وأمسك السكين ليذبحه ؛ فَجَاءَهُ الفرج من السماء : ﴿ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات:١٠٤-١٠٧)، ثم قال سبحانه : ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾

(الصافات:١١٢) .

فَبُشِّر بإسماعيل أولاً بعد هجرته إلى الله حينما قال : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴾

(الصافات:٩٩-١٠١) .

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣٥٧/٤) ، عن ابن عباس .

الغلام الحليم والغلام العليم :

سمَّى الله إسماعيل بالغلام الحليم ، حيث ظهر حلمه حينما قال : ﴿ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ (الصافات:١٠٢) .

أما إسحاق فقال عنه : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ (الذاريات:٢٨)، فهذا تميَّز بالعلم ، وهذا تميَّز بالحلم ، كلٌّ منهما له فضيلته .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾

حينما دعا إبراهيم وقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الصافات:١٠٠) ، وهب الله له إسماعيل ، ولعل له دعوة لم يذكرها القرآن ، فوهب له إسحاق عليه السلام .

مجيبُ الدعاء :

﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

هو الذي يسمع الدعاء ، أي : يقبله ويستجيبه ، ليس فقط يسمعه يعني يصل إلى سمعه ، كما نقول : سمع الله لمَن حمده . أي : استجاب الله ذكْرَ مَنْ حمده . كما تقول : سمع كلامه ، قال له كذا فسمع كلامه ، أي : نفَّذ ما طلبه منه ، أو ما اقترحه عليه . فـ ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ ، يعني مُجيب الدعاء ، هو الذي يُجيب دعاء مَنْ دعاه ، خصوصًا دعاء المخلصين المُضْطرين : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (النمل:٦٢) .

المطلب السابع : إقامة الصلاة :

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾

دعاء ربَّه أن يُجنِّبه وبنيه أن يعبُدوا الأصنام ، ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم:٣٥) . وهنا ارتقى درجةً أخرى ، لا يكتفي بأن يُبعدهم عن الأصنام ، وأن يحميهم من عبادة الأصنام ، ولكن يريد شيئًا إيجابيًّا أكثر ، أن يدخل في الطاعات ، ورأس الطاعات هي الصلاة ـ هي العمود ـ عمود الإسلام .

سر التعبير بـ (من) في قوله : (ومن ذريتي) :

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ ، لم يقل : (وَذُرِّيتي) ، أو (كلَّ ذريتي) ؛ لأنه يعلم أنَّ من ذُرِّيته مشركين وكفارًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:١٢٤) ، ليس كلُّ ذُرِّيته ، ومن ذُرِّيته قريش ومشركو مكة ومشركو العرب ، الذين عبدوا الأصنام ، والذين قاوموا الدعوة المحمدية ، ولذلك قال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ .

حرصُ المؤمن على صلاح الذريَّة :

ومن شأن الإنسان المؤمن أن يحرِصَ على ذُرِّيَّته ، لا يكتفي بالدعاء لنفسه ، يدعو لنفسه ولذريته ، أن يكونُوا من أهل الخير ، ومن أهل الصَّلاح ، مهما كان الإنسان أنانيًّا فإنه يدعُو لأبنائه وبناته وذُرِّيته من بعده .

إنَّ الإنسان يحبُّ أن يكون أحسنَ الناس ، وأفضل الناس ، إلا مع أولاده ، يحب أن يكون أولاده أفضل منه . أحيانًا يأتيني بعض الإخوة فيقول : هذا ابني سلِّم عليه . فأقول : بارك الله فيك ، وجعلك خيرًا من أبيك . فيبتسم الوالد ويقول : أرجو الله أن يجعله خيرًا مني .

لكن لا يحب أحدًا أن يكون خيرًا منه سوى أولاده ، ولذلك الإنسان لا بد أن يحرص على ذُرِّيته ، والقرآن الكريم يقول عن دعاء الإنسان الصالح : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النمل:١٩) . والإنسان الصالح يقول : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

(الأحقاف:١٥) .

﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ ، أي : اجْعَل الصلاح ساريًا في ذُرِّيتي ، فالإنسان يطلب الخير لنفسه ، ويطلب الخير لِذُرِّيته ، ولذلك سنَّ لنا سيدنا إبراهيم عليه السلام هذه السُّنَّة حينما دعا : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، وقال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ ؛ لأنَّ الذُّريَّة الصَّالحة تنفعُ أهلَها ، تنفعُ آباءَها في الدنيا وفي الآخرة ، حتى بعد الممات ممَّا ينفع الإنسان بعد موته : الولد الصَّالح يدعوُ له ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[1] . فهو ينفعك بعد مَمَاتك ، وينفعك في الآخرة ؛ لعلَّه أن يكون من الشافعين لك ، إذا كان أصْلحَ منك ، يشفعُ في أهله ، وأحقُّ الناس بشفاعته أبواه .

---

(١) رواه مسلم في الهبات (١٦٣١) ، وأحمد في مسنده (٨٨٤٤) ، وأبو داود في الوصايا (٢٨٨٠) ، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦) ، والنسائي في الوصايا (٣٦٥١) ، عن أبي هريرة .

المطلب الثامن : قبول الدعاء :

﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾

وأما المطلب الثامن : فهو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ ، هذا مطلبٌ عامٌّ ، يقول : ياربِّ ، ما دعوتك به تقبَّله منِّي . لأنه ليس المهم هو الدعاء ، ولكن المهم قَبول الدعاء ، قد تدعُو ليلَ نهار ، قد تدعُو بعَشَرات الدعوات ، قد تقرأ كتابًا في الدعاء وتدعو ، ولا يُستجاب لك ، إنَّما المهم هو قَبول الدعاء .

معنى قَبول الدعاء :

ومعنى قَبول الدعاء : أن يرزقك الله من صفاء القلب ، ومن نقاء السريرة ، ومن طيب النفس ما يزيل الحواجز بينك وبين الله ، حتى إذا دعوتَ قلتَ : يا رب ، يا رب . قال : لبَّيك عبدي وسَعْدَيك . الصلة بينك وبين الله قائمة ، الباب مفتوح ، والطريق ممهد .

حين تُحدِّث أحدًا في الهاتف والخط موصول ، يردُّ عليك صاحبك . إنما إذا كان الخط مقطوعًا ، مهما تحاول التوصُّل إليه لن يردَّ عليك ، لأنَّ الخط مقطوع . فإذا كان الطريق مقطوعًا بينك وبين الله ، فادعُ ما شئتَ لن يُستجاب لك . إذن صِلْ ما بينك وبين ربِّك قبل كلِّ شيء ، أوْصل الحبال بالله ، ثم ادْعُ الله عزَّ وجلَّ ، فهذا معنى : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أي : هيِّئ لي من الأسباب ـ من أسباب القَبول ـ ما تجعل دعائي مقبولاً عندك ، ولا تردَّ دعائي ولا تخيِّب رجائي .

كيف يتقبَّل الدعاء؟

﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ ، الدعاء إذا صَدَر من قلبٍ خالص استجاب الله له ، حتى دعاء المشركين ـ الذين يعبدون الأوثان ـ حينما يركبون السُّفن وتجري بهم بريح

طيِّبة ويفرحونَ بها ، ثم يتغيَّر الحال ، ويهيج البحر ، ويلعب بهم الموج ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (يونس:٢٢) ، يا رب ، يا رب . وهم مشركون ، إنما لا يدعون هُبَل ولا مناة ، لا اللات ولا العُزَّى ، بل يقولون : يا رب ، يا رب . تركوا الشرك : ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (يونس:٢٢) ، وعرف الله إخلاصهم في هذه الحالة ، فاستجاب لهم ، ثم نُكسوا على رؤوسهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، إنما في هذه الحالة ـ حالة الإخلاص ـ حينما دعوا الله بها ، استجاب الله لهم الدعاء .

ثم بعد أن أثنى على الله عز وحل ، وأظهر فقره وعبوديته وشكره لله سبحانه بأن وهب له مع كبره في السن إسماعيل أولاً وإسحاق ثانيًا

المطلب التاسع : طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين :

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾

أما المطلب التاسع والأخير : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ ، سأل الله لفروعه ـ لذريَّته ولبنيه ـ ولكنه لم ينسَ أصوله ، فقال : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ ، كما ينبغي على الإنسان أن لا ينسى أولاده ، ينبغي عليه أيضًا أن لا ينسى آباءَه وأمهاتِهِ ، لذلك قال : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ .

وهكذا دعا سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ (نوح:٢٨) .

انظر دعا لنفسه : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ ، ابدأ أولاً بنفسك ، ﴿ وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ ، أقرب الناس إليك ، وأحقُّ الناس أن تبرَّهم ، ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾ ، لأنَّ الذي يدخل بيتي من جيراني ومن أقاربي لهم حقوقٌ عليَّ ، ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ .

كذلك سيدنا إبراهيم يقول : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول الإمام الشَّعبي : ما يَسُرُّني بنصيبي من دعوة نوح وإبراهيم للمؤمنين والمؤمنات حُمْر النَّعم[1].

يقول : لا أحبُّ أن يكونَ لي الجمالُ الحُمْر ـ أغلى أنواع الإبل ـ وأُحرم من نصيبي في دعوة نوح وإبراهيم ، لأنَّ نوحًا قال : ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، فهذه تشمل المؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة ، يقول : ما أحبُّ أن يكون بنصيبي من هذه الدعوة حُمْر النَّعم ، وكذلك نصيبي من دعاء إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ .

استغفار إبراهيم لأبيه قبل أن يَتبيَّن له أنه عدوٌّ لله :

كيف طَلَب المغفرة لوالديه ؛ وأبوه ـ كما هو ظاهر القرآن ـ كان مشركًا؟!

هذا قبل أن يتَّبين له أنه عدوٌّ لله ؛ فإنَّ القرآن يقول : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ (التوبة:١١٤) ، ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾(مريم:٤٧)، وعده وأراد أن ينجز مَوْعدته ، ينجز وعده ويدعو الله له ، ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة:١١٤).

قال بعض المفسرين : أمُّه كانت مؤمنةً ، أما أبوه فكان مشركًا ، وأصرَّ على شركه ، يقول له : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٣١٥١) ، وانظر : الدر المنثور (٤٩/٥) ، وروح المعاني (٢٤٤/١٣)

﴿ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ (مريم:٤٢-٤٥)، لم يستجب له ؛ لأن الهداية من الله عزَّ وجلَّ ، وقد رأينا الأب المؤمن والابن الكافر في قصة نوح عليه السلام ، ورأينا الأب الكافر والابن المؤمن في قصة إبراهيم عليه السلام .

دعوات جامعة :

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ ، جمع إبراهيم الخير لبنيه ، والخير لأبويه ، وهذه أفضل الدعوات التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمن - دعوة إبراهيم - ونحن - بحمدِ الله - من أكثر الناس استبشارًا بهذا الدعاء ، ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم:٤٠،٤١) ، دعوات جامعة ، وعلى الإنسان أن يحرص على هذه الدعوات .

احتفاء القرآن بدعوات إبراهيم :

رأينا القرآن حفيًّا بدعوات إبراهيم عليه السلام ، في سورة البقرة وهو يرفع القواعد : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(البقرة:١٢٧،١٢٨) .

وفي سورة الشعراء : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٣-٨٩) .

وفي سورة الممتحنة : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(الممتحنة:٤،٥).

عُني القرآن بدعوات إبراهيم ، وبدعوات الأنبياء ، خصوصًا دعوات المغفرة ، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم:٤١) .

طلب الأنبياء المغفرة :

الأنبياء دعوا ربَّهم بأن يغفر لهم ، وقد عَصَمهم الله من الكبائر ، أو عصمهم من الكبائر والصغائر جميعًا ، ومع هذا يدعون الله عزَّ وجلَّ ويستغفرونه .

كلُّ الأنبياء دعوا ، إبراهيمُ دعا﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم:٤١) ونوحٌ دعا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (هـود:٤٧) ، وداود : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾(ص:٢٤) .

وسليمان عليه السلام قال : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (ص:٣٥) .

وهكذا رسل الله عليهم الصَّلاة والسلام ، وآخرهم وخاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام ، بل إنَّ محمدًا كان أكثر الأنبياء استغفارًا لربِّه ، وَوَرَد عنه من صيغ الاستغفار ما لم يرد عن نبيٍّ من الأنبياء ، ومن ذلك :

« ربِّ اغفر لي خطيئتي ، وجهلي ، وإسرافي في أمري كلِّه ، وما أنت أعلم به مني .

اللهمَّ اغفر لي خطاياي ، وعمدي وجهلي وهزلي ، وكلُّ ذلك عندي .

اللهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر ، وأنت على كلِّ شيء قدير »[1].

« اللهمَّ اغْفر لي ذنبي كلَّه ، دِقَّه وجُلَّه ، سرَّه وعلانيته »[2].

ودعاء سيد الاستغفار : « اللهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ ، أعوذ بك من شرِّ ما صنعتُ ، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ ، وأبوءُ بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[3].

كلُّ هذا يدلُّنا على أنَّ الإنسان في حاجة ماسَّة إلى أن يستغفر ربَّه .

إيَّاك أن تقول : أطلبُ المغفرة من أيِّ شيء؟ أنا ما أذنبتُ ، ولم أرتكب معصية تحتاج إلى استغفار؟! فالأنبياء طلبوا من الله المغفرة ، وأنت لو لم تفعل شيئا يكفي هذه الكلمة ، هذه الكلمة هي سيئة في حدِّ ذاتها ، هذا هو العُجْب ، هذا هو الغرور الذي يهلك الإنسان ، شعورك بأنك لم ترتكب ذنبًا ، هذا هو الذنب العظيم .

ينبغي أن يشعر الإنسان ـ مهما عمل من الصالحات ـ أنه في حاجة إلى مغفرة ربِّه ، فالمؤمن يعمل الصالحات ويقول : أخشى ألا تُقبل منِّي : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** ﴾ (المؤمنون:٦٠) ، وأما المنافق فهو يعمل السيِّئات ويقول : أطمع أن تغفر لي . كما قال الله تعالى عن اليهود : ﴿ **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا** ﴾ (الأعراف:١٦٩) ، فإيَّاك أن تتشبَّه باليهود .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٩) ، عن أبي موسى الأشعري .

(٢) رواه مسلم (٤٨٣) ، وأبو داود (٨٧٨) كلاهما في الصلاة ، عن أبي هريرة .

(٣) رواه البخاري في الدعوات(٦٣٠٦) ، وأحمد (١٧١١١) ، والترمذي في الدعوات (٣٣٩٣) ، والنسائي في الاستعاذة(٧٩٠٨) ، عن شداد بن أوس .

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ ، طلب إبراهيم من ربِّه عدَّة مطالب :

المطلب الأول : أن يجعل البلد الحرام ـ مكة المشرَّفة ـ آمنةً ، فاستجاب الله دعاءه ، كما علَّمنا التاريخ ، وكما ينبِّئنا الواقع الآن .

والمطلب الثاني : أن يُجنِّبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام .

والمطلب الثالث : يَتعلَّق بالموقف من الأصنام ، ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (إبراهيم:٣٦) .

والمطلب الرابع : يتعلق بذرِّيته ، الذين أسكنهم بوادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرَّم . وقد طلب أن يقيموا الصلاة .

والمطلب الخامس : أن يُحرِّك قلوب الناس لتهوي إليهم وتميل مَيْل محبة وشوق .

والمطلب السادس : أن يرزقهم من الثمرات رجاء أن يشكروه ، وقد حقَّق الله ذلك منذ عهد هَاجر وولدها إسماعيل عليه السلام ، فقد جاءت الروايات الصحيحة ، أنَّ إبراهيم وضع هَاجر وابنها الرضيع في هذا المكان وتركهم ، وأراد أن يمشي ، فقالت له هَاجر : أين تذهب وتتركنا في هذا المكان ، الذي لا أنيس فيه ولا زرع ؟ فلم يردَّ عليها ، تكلَّمت فلم يردَّ عليها ، تكلمت فلم يردَّ عليها ، قالت : آلله أمرك بهذا؟ قال لها : نعم . قالت : إذن لا يُضيِّعنا[1] .

ما دام هذا أمرًا من عند الله عزَّ وجلَّ ، فلن يُضيِّعنا الله ، وقد هيَّأ الله لها ماء زمزم بعد ذلك ، وهيَّأ الله لها من قبائل العرب مَنْ جاء يُساكنها ، وهي تُعطيهم من

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء (٣٣٦٤) ، عن ابن عباس .

ماء زمزم ، وهم يعطونها من ألبان أغنامهم وإبلهم . . وهكذا . ﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ .

ثم كان **المطلب السابع** : أن يجعله مقيمًا للصلاة ومن ذريَّته .

وطلب **المطلب الثامن** : وهو قبول الدعاء .

وفي **المطلب التاسع** : طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين .

* * *